المحاضرة الثالثة: الفينومينولوجيا عند إيدموند هوسِّرل.

" في العمق، ولدت الفنومينولوجيا منذ أن وضعنا جانبا، بشكل مؤقت أو دائم، مسألة الوجود، وتناولنا، كمشكلة مستقلة، طريقة ظهور الأشياء." إدموند هوسرل.

لقد ارتبطَ اسم الفيلسوف الألماني إدموند هوسِّرل (1859_ 1938) بالفينومينولوجيا ، والتي تُعرَف بالظاهراتية أو الظاهريات .

وُلد هُوسِّرل في مُورافيا لأبوين يهوديين ، لكنه تنصَّر في عام 1886 (على المذهب البروتستانتي) مثل الكثيرين من اليهود . واليهودُ الألمان كانوا يُعتبَرون عناصر شاذة في المجتمع ، يُنظَر إلَيهم بِعَين الرِّيبة، ويتم تصنيفهم كطابور خامس . لذلك كان الكثيرون منهم يَتنصَّرون للحصول على مصالح شخصية ، ومزايا وظيفية. ومن أجل إبعاد المشكلات عن حياتهم ، وتقديم أنفسهم كمواطنين صالحين يعيشون في قلب المجتمع ، ولا يَعيشون على هامشه .

درس هُوسِّرل الرياضيات في فيينا ، وحصل على شهادة الدكتوراه عام 1883. ثُمَّ درس الفلسفة على يد فرانز برنتانو . قام بالتدريس في جامعة هاله (1887_ 1901) ، ثُمَّ في جامعتَي جوتنجن وفرايبورج (1906 _ 1916) ، حتى تقاعد عام 1929. والجديرُ بالذِّكر أن هوسِّرل هو أستاذ مارتن هايدغر . وفي عام 1933 قام النظام النازي بتجريده من مكانته العلمية ومزاياه الأكاديمية. وبعد معاناة مع المرض ، تُوُفِّيَ في فرايبورج عام 1938 . ومِن أبرز مؤلفاته : فلسفة علم الحساب (1891) . بحوث منطقية (1900_ 1901) . أفكار : مقدمة عامة لفلسفة ظاهرية خالصة (1913) . المنطق الصوري والمتعالي (1929) . تأملات ديكارتية (1932) . أزمة العلوم الأوروبية والظاهريات المتعالية (1936) . التجربة والحكم (1939) .

لقد دشن الفيلسوف وعالم الرياضيات الألماني أودموند هوسرل 1859-1938 الحركة الفلسفية التي اصطلح على تسميتها فنومينولوجويا والتي ارتكز منهجها بالأساس على رد المعطيات إلى الوعي واستخلاص الفلسفة من الميتافيزيقا التي أضاعت طريق الذهاب إلى الأشياء في حد ذاتها. لكن هذه الفلسفة ظلت تدور في فلك البيذاتية تقوم بتمجيد التمثل وتعرف الوعي بالعالم بواسطة القصدية وتسعى لكي تشكل المنهج الوصفي الأكثر صرامة ودقة بالنسبة للظواهر وتمنع نفسها عن الالتقاء بالغير كماهو في حد ذاته. لقد أحدثت محاضرة أدموند هوسرل من على مدرج السوربون سنة 1929 والتي جاءت بعنوان "تأملات ديكارتية" رجة في صف الفلسفة الفرنسية وأثرت بقوة على أبحاث ليفيناس وسارتر وغاستون برجر.

بيد أن طرافة الفنومينولوجيا في الساحة الفرنسية أنها اصطبغت بالمنحى النفسي عند موريس مرلوبونتي وجسدت تأثير هوسرل من خلال هيدجر على ليفيناس وسارتر وريكور ودريدا. احقاق للحق ينبغي القول بأن الفنومينولوجيا مثلت في بداية القرن العشرين وعيا جديدا بالأزمة التي يعاني منها العالم ودشنت محاولة جدية للتفكير في الأزمة واستفاقة فلسفية مهمة بغية البحث عن مسارات مستحدثة تتعقل الأحداث وتشخص الوضعية وتقوم الأنساق وتنشر الأمل والانعتاق .وبالتالي" من المهم أن نرى أن الفنومينولوجيا تمثل بالنسبة لبعض الفرنسيين المحاولة الوحيدة الصارمة (لا يتم اعتبار الفلسفة التحليلية مطلقا في هذا السياق) لإحياء الفلسفة بعد نهاية الميتافيزيقيا".

لقد سعت الفنومينولوجيا إلى تخطي العديد من الأزواج الميتافيزيقية ضمن تأليف جدلي بينهما على غرار ثنائيات الطبيعة والقانون، وكذلك الجسد والنفس، ثم التجريبية والعقلانية، وأيضا الإنسان والعالم، والذاتي والموضوعي ووجهت الأنظار الى الخبرة المعيشة والحياة اليومية وقضية المعنى والقصدية

والبيذاتية والعالم المشترك وأعلنت الحرب على الوضعانية والعلموية. من المعلوم أن علاقة بول ريكور بالفنومينولوجيا وثيقة وبدئية في حياته الأكاديمية وخاصة حينما ترجم عن الألمانية "أفكار توجيهية من أجل فنومينولوجيا أدموند هوسرل" وقدمه إلى الجمهور الفرنسي سنة 1950 وأعاد طبعه سنة 1985 عن دار غاليمار وبعد ذلك بسنة أي 1986 وجمع مقالات في كتاب عنونه "في مدرسة الفنومينولوجيا"، ثم أعيد طبعه عام 2004 عن دار فران. إن هذه النصوص المجمعة تنتمي الى سنوات التعلم الأولى ولقد تمحورت في معظمها حول هوسرل المؤسس الثاني للمدرسة بعد هيجل وضمت مقدمة الأفكار والتعليق على الترجمة والكريزيس. بيد أن المنهج الفنومينولوجي ظل يرافقه في الرحلة الفكرية الطويلة والشاقة وبقي وفيا له ويلتجئ اليه في كل مرة يجد صعوبة للتقدم في البحث ويظهر ذلك بوضوح في ثلاثية "الزمان والسرد" وفي قراءاته السياسية والدينية والأخلاقية ولقد ثمنه في "الذاكرة، التاريخ، النسيان" سنة 2000. لقد طرح في حصة اذاعية معنونة بالفنومينولوجيا بوصفها معرفة الإنسان أجراها في18 ديسمبر 1957 الكيفية التي قطع بها تفكير أدموند هوسرل مع التقليد السائد في تاريخ الفلسفة وتحوله من واقعية المواضيع الى مثالية الوعي وتفتيشه عن إدراك الشكل الأكثر أولية في مضامين للوعي.

"لن تكون الفنومينولوجيا تجربة فقط بل هي تحليل قصدي. إنه مع موضوع القصدية يتم تعريف الفنومومينولوجيا المتعالية من حيث هي فلسفة معنى"

يعتبر أدموند هوسرل عقدة الفنومينولوجيا، فهو المؤسس الرسمي حسب معظم مؤرخي الفلسفة لهذا التيار المعاصر من جهة أولى ولكنه يعد من جهة ثانية المؤرخ المتتبع للارهاصات الفكرية التي وجدت عند الفلاسفة قبله وخاصة ديكارت ولابنتز وكانط وهيجل، وأيضا من جهة ثالثة أبحر في النهر الكبير التي تفرعت عنه أودية فنومينولوجية عميقة مثّلها هيدجر وغادامير ومرلوبونتي وليفيناس وريكور. لم يكن هوسرل الفيلسوف الأول الذي تحدث عن الفنومينولوجيا فقد سبقه كل من لايبنتز وكانط في التطرق الى مفهوم الظاهرة وكان هيجل في كتاب فنومينولوجيا الروح قد أثار هذا الموضوع.

صحيح أن هيجل كان أول فيلسوف فهم الفنومينولوجيا بوصفها تفتيش وافي في مختلف أبعاد التجربة الإنسانية ولم يحصرها في الحقل الإبستيمولوجي مثل كانط وإنما وسع دائرتها لتشمل الجمالي والديني والسياسي والإيتيقي ولكن هذه الفنويمنولوجيا الهيجلية التي تجاوزها هوسرل تضمنت عنصرين مقلقين هما التراجيدي والمنطقي، الأول بقي مرتبطا بالشغل الذي يقوم به السلب، في حين أن الثاني اقتصر دوره على التعبير عن الصلة الضرورية بين أشكال الروح في تطورها الموحد، وتبعا لذلك الظاهرة ليست المظهر الذي يسمح للكائن باستعادة المعرفة المطلقة. وبهذا المعنى يعيب هوسرل على كانط وقوعه في التأويل المثالي للمنهج وإخفاء الاهتمامات الإبستيمولوجية في النقد للأوصاف، ويلتقي في العمق بالإحاطة الفكرية بكل قطاعات التجربة التي أنجزها هيوم عندما وجه ذوقه نحو كل ما هو أصلي وممتلئ وحاضر دون اعتماد الرموز وأدرك الدلالات والأشياء والقيم والأشخاص. بيد أن هوسرل يرجع بالفنومينولوجيا الى ديكارت وجذرية الشك واكتشاف الكوجيتو ويسمح له الرد الفنومينولوجي لكي يتخلص من البديهيات المخادعة واليقينيات الزائفة ويصعد نحو الظاهرة الحقيقية والمظهر الأصيل ولم يعد الأنا أفكر يمثل الحقيقة الأولى التي تتبعها سلسلة من المبادئ المنطقية الضرورية كما وضعها ديكارت بل الحقل الوحيد الذي تترجم فيه الحقيقة الفنومينولوجية طموحاتها نحو امتلاك المعنى وتواجه ضمنه كل أشكال الحضور التي تتشكل منها ظاهرة العالم.

على هذا الأساس لا تمثل الفنومينولوجيا التي شيدها هوسرل طفرة مفاجئة في الفلسفة وإنما هي مواصلة منتظرة للترنسندنتالي عند كانط والأصلي عند هيوم والشك والكوجيتو عند ديكارت. لكن فنومينولوجيا هوسرل تتميز عن غيرها بوحدة المقصد ووضوح الطريقة وطرافة المواضيع المتناولة وإبراز نتائج التعامل مع الموقف الطبيعي والعلاقة القصدية بين الذات وعالم الحياة" صحيح أن الفنومينولوجيا مشروع واسع ومترامي الأطراف ولا يمكن اختزاله في عدد قليل من الأشخاص وهو منهج أكثر منه مذهب وشهد تطبيقات عديدة من طرف علماء النفس واللغة على غرار بفاندر وجايجر وماكس شيلر وهارتمان

وياسبرس وهيدجر ولكن أدموند هوسرل قد تفوق على كل هؤلاء المفكرين حينما نحت مفهوم الأفق واعتبر الفنومينولوجيا الفلسفة الأولى ومنحها لقب ملكة العلوم. حول هذا الموضوع يصرح:" لا شك في أن ظاهرة الأفق لها أهمية رئيسية بالنسبة لبحث هوسرل الفنومينولوجي... إن الأفق ليس هامشا صارما وإنما هو شيء يتحرك مع المرء ويدعوه إلى التقدم إلي الأمام ".

لقد تميز كتاب الأفكار الأول بالنقد الشديد الذي وجهه هوسرل نحو النزعة النفسانية ومراجعته مفهوم المنطق ولكنه في الكتاب الثاني من الأفكار وضع تحت الاختبار المصطلحات الضمنية للمنهج الفنومينولوجي والتي لن يعلن عنها بوضوح إلا في القسم الخامس والسادس من البحوث وتجسدت في مفهوم القصدية ومصطلح الحدس المقولي وشكلت النظرية الفنومينولوجية للدلالة. ربما أول سؤال تطرحه الفنومينولوجيا مع هوسرل من خلال منهجية الوصف الإدراكي التي تعتمدها بديلا عن التفكير التأملي هو: على ماذا يدل فعل يدل؟ بعبارة أخرى :ماذا تعني الدلالة؟

لا تنطلق الفنومينولوجيا من ما هو صامت أثناء عملية الوعي بل من العلاقة التي تقيمها الذات مع الأشياء عن طريق العلامات وما تقوم ببلورته الثقافة المتكلمة ومن خلال إرادة القول من حيث هي حركة إشارة تميز الدلالة عن العلامات الأخرى وتفرق بين الكلمة والصورة وبين الدلالة الفارغة والدلالة التي يعمل الحضور الحدسي على تضمينها وتعيينها بواسطة التحليل القصدي .كما تذهب القصدية رأسا نحو المعنى وتعتبر الخاصية الملحوظة للوعي بأن يكون وعيا بشيء ما وذلك بالهروب من ذاته نحو استهداف الآخر عبر الفعل الدلالي الذي يتضمن أساسي القصدية، وتتكون من حركتين: الأولى المقصد الذي يذهب إلى المعنى بعد تحديد المعنى المقصود، أما المقصد الثاني فهو الذي يذهب نحو الحضور ويقع حله بالحدس ويكون الإدراك شكله الأساسي. هكذا تمثل الفنومينولوجيا طريقة للقطيعة مع الحس المشترك وتستمد معناها من التساؤل المفتوح بمعزل عن كل اختزال مدرسي وتشيد حركة فكرية تتخلص من ميتافيزيقا الزمن الأصلي وتضع مشكل الآخر وبعد المكانية وتعيد تأويل الكوجيتو عن طريق إنتاج معنى جديد للعالم وظاهريته. على هذا الأساس تفيد القصدية خروج الوعي عن ذاته والاتجاه نحو شيء ميعن يمكن أن يكون هذا المقص هو الواقع أو اللاّواقع أو الماضي أو المستحب أو المرغوب فيه أو المحكوم عليه، وهو ما يمكنها من تخطي المراوحة العقيمة بين النزعة الواقعية والنزعة المثالية وتتيح للموضوع بأن يتعالى على الوعي وصفيا ويكون داخل مجال الوعي عبر ظهوره لهذا الوعي قصديا.

بيد أن هوسرل يمنح الوعي الأولوية بالمقارنة مع الأفعال القصدية الأخرى ويبتعد عن النزعة المنطقية السائدة في فلسفات النقدية للحكم ويعتمد نموذج الحضور "باللحم والعظم" في الواقع ويعول على إدراك المواضيع الأكثر ثباتا من أجل اكتشاف أفق الوعي وبنية إمكانياته من خلال التفكير في الزمانية ويقوده هذا الدرب إلى الاقتراب من تناول ثيمة الوجود في العالم الشهيرة. من هذا المنطلق أسس هوسرل فنومينولوجيا الإدراك بالتخلي عن طريق النظر الخاطف الذي تعبر عنه جدلية أصلية للمعنى والحضور ويتم توضيحه بالعلاقة بين الفارغ والممتلئ، وتشتغل في عملية الإدراك ذاتها على استشراف وحدة المعنى التي تسمح بتحديد تدفق مظاهر الشيء.

لقد أصبحت الفنومينولوجيا ممكنة حينما غادرت أفلاطونية المعنى المعقول التي تمخضت عن سجالها مع النزعة النفسية وراهنت على الحدس المحمول على ماهية الأفعال الواعية ومضامينها وتوصلت إلى التمييز بين التعبير والعلامة والدلالة وبين الفارغ والممتلئ من الدلالة وبين الحدس الحسي والحدس المقولي وتمكنت من التحرك في عملياتها على صعيد حدس الأيديوس .Eidosغني عن البيان أن الفنومينولوجيا تعمل جاهدة على تطوير نوع من النقد الذي يسمح لها من مواجهة النزعة العلمية الصارمة عند غاليلي التي تزعم تأسيس علوم دقيقة خالية من كل اعتبارات أخلاقوية وترفض أن تكون الحقيقة الأولى للعالم هي تلك التي تقدمها الفيزياء الرياضية وتعتمد على الحقيقة التي يمنحها الإدراك وتقر بأن واقعة العلم نفسها تم تشييدها على بنية فوقية تستند إلى عالم معيش بشكل إدراكي. لقد جعل هوسرل من تعالي المدرك بالمقارنة مع الوعي الشرط الإمكاني الذي يتيح له عملية نقد الكيفيات الثانية التي قال بها

جان لوك ونفي الوجود في ذاته الذي توصف به الأشياء المدركة. بعد ذلك قام هوسرل بتكرير عمله الفلسفي التأسيسي وانتقل من فنومينولوجيا منطقية تحوم حول التأويل المثالي للطريقة إلى فنومينولوجيا وصفية تستهدف المعنى والدلالة عن طريق الاختزال ورأى أن المساهمة الفلسفية الأساسية التي قدمتها الفنومينولوجيا هي وصف الوضعية العسيرة والأصلية لمشكل الواقعة والتفريق الذي أحدثته بين النوام والنواز في جميع تحليلات الوعي. لقد أجرى هوسرل في الأفكار2 تحليلات صارمة ودقيقة على الوقائع الثقافية والشخصية وعلى النفسي وعلى تكوين الوعي ولكنه يرفض أن يكون فعل التكوين هو فعل تشييد وخلق وإنما هو فعل كشف وتجلية وإبانة عن المقاصد التي يستهدفها الوعي وتختلط مع الإدراك الطبيعي للشيء. بهذا المعنى"تكون فنومينولوجيا الادراك ممكنة لأن تكوين الشيء يتضمن ماهية يمكن بلوغها في بعض الأمثلة"، ويظهر الرد الفنومينولوجي الذي صاغه هوسرل على أنه توضيح للمنهج المطبق لوصف الظواهر وفي ذات الوقت بلورة لفلسفة متعالية تتضمن قرار ميتافيزيقيا حاسما حول منزلتها الأنطولوجية. لكن كيف انتقل هوسرل من الفنويمنولوجيا الوصفية إلى الفنومينولوجيا المتعالية؟ وماهي مختلف الشروط التي دفعته إلى الانتقال مجددا من الفنومينولوجيا المتعالية إلى الفنومينولوجيا التكوينية؟

لقد وقعت الفنومينولوجيا في أزمة ريبية أصابت ماهية الوعي وحولته إلى لغز بعد اكتشاف القصدية من جهة والإحالة إلى التعالي من جهة أخرى ولم يخرج منها إلا من خلال التمييز ليس بين الوعي التفكيري والشيء المكاني كما فعل ديكارت بل بواسطة الانقسام في الموضوع نفسه بين الكائن في ذاته المزعوم ومظهره المحض والذي أعدت له عرضية وزمانية هذا المظهر. من هذا المنطلق لا يعني الرد الفنومينولوجي أن العالم لا يمكن أن يكون شيئا ولا يكتمل بإرجاع الوجود للمظهر وإنما هو إنقاص من الوجود والاحتفاظ بما يمكن أن يتخلف في الوعي من بقايا المظهر المحض. كما لا يجوز تأويل عملية الغزو التي تحدث للمظهر إلا عبر اتخاذ قرار بشأن معنى الوجود ذاته. هكذا تؤسس فنومينولوجيا هوسرل من خلال التأملات الديكارتية لمثالية جديدة تعتبر العالم ليس كماهو بالنسبة للذات وإنما يستمد من الأنا كل صلاحيته الأنطولوجية ويصبح عالما مدركا في الحياة التأملية، أما التكوين فهو مشروع تجميع تدريجي لدلالة العالم دون مخلفات أنطولوجية.

لقد انتقل هوسرل التأمل الرابع من فنومينولوجيا متجهة نحو الموضوع إلى فنومينولوجيا متجهة نحو الأنا حيث يقوم بتكوين نفسه بشكل تدريجي وبطريقة تطورية من حيث هو كائن موجود، وبعد ذلك تعيد الفنومينولوجيا وضعها لنفسها وتتحول إلى انتشار للأنا وتفسير للذات بذاتها نفسها. بعد ذلك تركز الفنومينولوجيا على أمرين أساسيين: تنمية الزمانية بإعطاء قيمة للحاضر الحي والتطابق مع علم الأنا وما يترتب عنه من إثارة مشكل جديد كان غائبا تماما وهو وجود الغير. هكذا تجد الفنومينولوجيا نفسها في مواجهة مفارقة الأناوحدية طالما أن الأنا يتكون بشكل بدئي ولا تجد هذه المفارقة فضاء الحل إلا في التأمل الخامس لما تم تصويب النظر نحو مسألة الغير.

إن الدور الذي يؤديه وجود الغير هو منح الأفكار المتعلقة بالأنا موضوعيتها ولا يظهر قادرا على التعالي إلا بواسطة أنا آخر هو بدوره يتكون كغريب ولكن في حقل التجربة الخاصة بالأنا. اللافت للنظر أن فنومينولوجيا هوسرل تقع في صعوبات حينما تكون مطالبة بالاحترام التجربة المبتذلة للبيذاتية من جهة والتحلي بالجذرية الفلسفية للتأملات الديكارتية وصعوبة الانفصال عن السياق المثالي. لهذا السبب وجد هوسرل نفسه مجبرا على إجراء مراجعة معمقة للتخلص من المثالية المتعالية وحمل الفنومينولوجيا نحو مواضيع مألوفة في الوجودية لكي يبحث أقل من الحكم عن نظام التجربة وأصل نظام الإسناد وتفعيل فكرة التكوين الانفعالي السابق على العمليان الايجابية للطرح والطباق والافتراض وجعل العالم يظهر لا بجمع المواضيع بل ككلية نابضة بالحياة لا تقبل للشك. لقد دفع هوسرل ببحوثه في الفنومينولوجيا الوصفية لكي تقوم بإلغاء الجدلية بين الدلالة الفارغة والحضور الممتلئ وخاض البحث الجنيالوجي الذي يذهب من التحت إلى الأعلى دون أن يفرط في الحركة المعاكسة التي تقوم بالذهاب من المدلول إلى المعيش ودون أن يهمل الرد من حيث هو عودة إلى منطق قبل إسنادي والى البداهة البدئية للعالم.

هكذا ترنو الفلسفة الفنومينولوجية إلى الاعتراف بكل ماهو كائن قبل الرد وبكل ما لا يقبل الرد. فإذا كان الكون الغاليلي يمكن اختزاله فنومينولوجيا فإن الوجود في العالم من حيث تعود إليه كل حقيقة متجلية هو ما لا يمكن اختزاله. من هذا المنظور تظل الفنومينولوجيا دقيقة وصارمة حتى لو تناولت مواضيع عادية واهتمت بمباحث تبدو تافهة وبالتالي لا توجد فنومينولوجيا مبتذلة حسب هوسرل بل تضع بين معقفين مسألة عمق وجود الكينونة وتتناول طرائق ظهور الأشياء بوصفها مسألة مستقلة وتركز على دلالة الظواهر ومعنى التاريخ وتعيد تشكيل العلاقة بين الإنسان والعالم وتشتغل على العلاقة القصدية بينهما التي تغادر الموقف الطبيعي وتبذل مجهودا مضاعفا في اتجاه التجذير الفنومينولوجي لكي تتخلص من النزعة الأناوحدية وتلتقي بالبيذاتية وتنفتح على الفضاءات الغيرية وتقوم باستعمال الفنومينولوجيا بالشكل الحاذق في تنمية الإحساس بالذات والعالم ورسم الحدود بين المعارف والبقاء عند العتبة.

لقد حازت الفنومينولوجيا على جملة من الخصائص الابستيمولوجية التي تدور حول المنهج الوصفي والتحليل القصدي والحدس المقولي وأرست بذلك قاعدة جديدة للمعرفة تقوم على أسس مبتكرة وتجعل من الوعي بالعالم هو المنبع الذي يصدر عنه كل شيء ولكنها لم تخلو من نتائج أنطولوجية وتبعات ميتافيزيقية ومن موقف من الطبيعة وتأطير للواقع يقطع مع الجانب النفسي. لقد نقد هوسرل المثالية الرومنطقية في زعمها ملامسة المطلق الذي يتموقع فوق الوعي البشري وجعلت الفكر الإنساني يعترف بتناهيه ويتحرك ضمن حدوده ويحايث الأرض التي يتنزل ضمنها وقاد الموجة المضاد للتأمل إلى طرح مشكل فلسفي مغاير حول أهمية الاشتغال على المعيش.

والحق أن الفنومينولوجيا تميزت براهنية فعلية وطموح منهجي يقيني لمعالجة العديد من المشاكل ومثلت المنهجية العلمية الصارمة التي تسمح للفكر الفلسفي المعاصر بالتخلي الكلي عن النزعة الوضعية والتصورات النفسانية والمقاربات الطبيعوية وايجاد معرفة بالعادي والمعيش والذاتي. لقد أصبحت الفنومينولوجيا الدراسة الوصفية لجملة الظواهر التي تمنح للتجربة الذاتية واستقت من علم النفس الانتباه الى التجارب النفسية المعيشة التي تختلف عن أفعال الوعي، وأخذت من الرياضيات والمنطق الصرامة عند بلورة مقولات الوصف التي تتطابق مع تجربة الموصوف.

على هذا الأساس ظلت الفنومينولوجيا تشير الى اهتام هوسرل بضرورة العودة الى الأشياء ذاتها وتأسيس الفلسفة على قصدية الوعي وشغله حول التكوين المتعالية والرد إلى الذاتية المتعالية وتعمل على نقد الميتافيزيقا الكلاسيكية وتعود الى الحدس الأصلي للأشياء والأفكار وتعتبر نفسها علما دقيقا وتميز بين نوعين من العلاقة مع المعطى أو القصدية: الفكر المجرد والإدراك الواقعي. لقد شهدت الفنومينولوجيا مع هوسرل تطورا ملحوظا على صعيد الذاتية المتعالية ودشنت مهمة البدء الفلسفي الجديد والاستئناف الميتافزيقي الثاني وسيواصل المتأثرون به مسار تطوير هذه الحركة المركبة وسيتم إحداث تغييرا مهما في مفاهيم الذات والطبيعة والمعرفة ومعنى الوجود .على هذا الأساس "يكون مجد الفنومينولوجيا في الارتقاء إلى كرامة العلم من خلال الرد والتحقيق في الظهور".

لقد شكلت فنومينولوجيا هوسرل منطقا جديدا ثم تحولت إلى فلسفة للفكر وساهمت في قيام فلسفة الحياة ولقد تركت أثرها بشكل واضح على فلاسفة الكينونة والفلسفة الوجودية والفلسفة التحليلية. لقد نجح هوسرل في تطبيق منهج التحليل الوصفي على الحقول الإدراكية وقام بتوسيع الطريقة القصدية لكي تشمل الإحساس والاحترام والتعاطف والإرادة ودفع بالإدراك نحو اكتساب القدرة المكونة للوعي ضمن منزلة كشفية وانتهى به الأمر إلى تشخيص الأزمة التي وقعت في ورطتها مختلف العلوم الإنسانية وعانت منها الثقافة الأوربية والعقلانية الغربية والتي أدت بها إلى تصدع الذات وتجفيف منابع المعنى وتصحر الوجود وبروز التناقض بين علوم الوسائل وعلوم الغايات. لكن ماذا يعني هوسرل بعالم الحياة؟ وماهو الفرق الفنومينولوجي بين العالم والواقع؟

لا يمكن أن يشكل العالم حقيقة موضوعية ولا يفترض أن يمثل وجودا قائم الذات بصورة مستقلة عن الأشياء التي يتكون منها والذوات البشرية التي تتعقله وتدركه بل هو فكرة توجيهية من أفكار العقل، ومتصل بالذاتية المتعالية. إن الوعي هو الذي يكون العالم وان الأشياء عبر انفتاحها على الوعي الإدراكي تظهر العالم وتصوره. بهذا المعنى لا يوجد العالم بالطريقة التي توجد بها الموجودات التي يتكون منها. لهذا السبب أمكن للفنومينولوجيا المعاصرة أن تعرف العالم من حيث هو حدث إنساني أساسي والتعامل مع الإنسان من حيث هو موجود في العالم. بعد ذلك جاءت وجهة النظر التأويلية لتتعامل مع العالم من حيث هو نتاج ذاتية مكونة وتقر بوجود عوالم كثيرة بقدر وجود ذوات متعددة، وكل عالم لا يمكن معرفته إلا من خلال الذات التي تسكن فيه ولقد عبرت العبارة الألمانيةWeltanschauung عن النظرة إلى العالم أو الرؤية عن العالم. لقد حاز العالم على معنى خاص عند مارتن هيدجر بإشارته إلى انفتاح ouverture الذات على النور lumiere بصفة عامة، الذي يمثل النور الفيزيائي والنور الروحاني في ذات الوقت، وتأكيده على تعارضه مع ظلامية الأرض الذي تفيد تجذر الكائن في وسطه الفيزيائي والتاريخي. على الرغم من أن لفظ فنومينولوجيا كان قد استعمله هيجل، إلا أن الفلسفة الفنومينولوجية ظهرت مع أدموند هوسرل وتمت ممارستها بعده وفق أشكال مختلفة بواسطة ماكس شيلر ونيكولا هارتمان ورومان أنجاردن ومارتن هيدجر وجان بول ساتر و مرلوبونتي وعمونيال ليفيناس وميشيل هنري وجان لوك ماريون. ليست الفنومينولوجيا مذهبا يسهل عرض أطروحاته وتوضيح القضايا والتصورات التي يتكون منها بل هي ممارسة للفلسفة وجملة من المشكلات ومناهج موجهة نحو القيام بتحليلات للتجارب وتقديم الأجوبة. كما يمكن ذكر مجموعة من الخصائص المشتركة التي تتصف بها الفنومينولوجيا:

-يقر الفنومينولوجيون بوجود موقف طبيعي يغلب عليه شكلا من العفوية ويجعل المرء في غفلة من الواقع المحيط به، بينما يتميز الإنسان بالوعي والقصدية ويتجه نحو معرفة الأشياء من خلال تكوينها بالوعي.

-ينبغي على الفلسفة أن تقوم بتحويل فنومينولوجي وتغير توجهها بشكل تام وبدل الذهاب إلى الأشياء عليها أن تبدأ بمعرفة كيفية تتكون الأشياء بالنسبة إلي الذات وتحليل المعاني التي تكونها الذات عنها.

-القصدية هي الخاصية التي تميز الظواهر من خلال العلاقة التي يقيمها الإنسان مع الأشياء وتتعلق بحركات الوعي التي توجد في العالم بشكل أصلي وإنما تشكله بصورة قصدية من خلال الوضع البشري.

-الدلالة هي المسالة الفلسفية الأساسية التي تشتغل عليها الذاتية وتتيح لها مساءلة وجود الموجودات.

هكذا تطبق الفنومينولوجيا التعليق إزاء العالم لكي تستدرج الوعي ليعين قصديته وحقيقة علاقته الأصلية بالعالم وتفهم أن الرجوع إلى المعيش بالنشاط القصدي للوعي هو محاولة أساسية من أجل امتلاك المعنى. فكيف تستمد الفنومينولوجيا جدتها من تلافي نسيان العالم وتتوجه إلى العالم من حيث هو عالم؟ وما المقصود بعالم الحياة عند هوسرلle monde de la vie ؟

لقد بينت الفنومينولوجيا أن العلاقة مع العالم هي صلة تكوينية مع الوجود البشري، وعندما بذلت مجهودا استثنائيا في سبيل توضيح هذه العلاقة وجدت نفسها مضطرة إلى جعل مفهوم العالم ركيزة أساسية للوعي والنظر إليه بوصفه التعبير الإدراكي عن بنية قصدية أساسية تظهر بشكل مختلط في السياقات المختلفة التي تقوم اللغة الدارجة أو الكلام العادي بالاشتغال على مختلف استعمالات المصطلح في الحياة اليومية. إن المفهوم الفنومينولوجي للعالم يتعلق بالتجربة من حيث هي تجربة بشرية دالة ويتم تثمينه ومنحه قيمة ضمن التمفصل التكويني الذي يُقال به بصورة مجردة عن طريق الفهم التأويلي المغادر للموقف الطبيعي وللخطاب العلمي. بهذا المعنى ينتمي العالم إلى التوضيح الذي يسبق كل فعل وضعنة وتشكيل بالمقولات. بصفة عامة يرتكز الاشتغال على مفهوم العالم ضمن المقاربة الفنومينولوجية التي تقوم باستخراج البعد

الأساسي الذي تمثله التجربة السابقة عن التفكير للكائن البشري في بنته قبل التفكيرية من وظيفة الفكر الانعكاسي عينها.

أما بشكل خاص فإن الفنومينولوجيا مع أدموند هوسرل تعمل من حيث هي علم مضاد للعلوم الطبيعية ومنازع نوعي للنزعة الوضعية والمدرسة الريبية في ذات الوقت على خرق الموقف الطبيعي من أجل الانفتاح على الطابع الملغز الذي يتكون منه العالم والإصغاء إلى الظواهر والاندهاش من انعطاء ظواهر العالم في كليته. كما يبدو عالم الحياة من حيث هو أساس المعنى المنسي من طرف علوم الطبيعة التي عملت على بناء عالم رياضي من النماذج المثالية وتعاملت معه بوصفه العالم الحقيقي وأهملت تجربتنا في عالم الحياة اليومية. هكذا ترى أن العالم لا يمثل كلا مكتملا، بل هو تشييد في طور الاكتمال دوما، أي ليس له حقيقته التامة إلا كأفق.

على هذا الأساس يمكن إثارة المشكل الفلسفي حول العالم بالطريقة التالية :إن الإنسان الذي يعيش في هذا العالم، من حيث هو أيضا باحثا في الطبيعة، لا يقدر على إدراج في عالم الحياة جميع أسئلته النظرية ولا يتسنى له طرح كل المشاكل العملية التي تعترضه. إن عالم الحياة هو الأفق الذي يمنح كل استقراء يقوم به الإنسان معنى. إنه العالم الذي نعثر عليه من حيث هو عالم كل الوقائع المعروفة والمجهولة والذي نعيش فيه نحن أنفسنا بصورة متسقة مع نمط وجودنا أي في كل ما يلتصق بشخصنا حيث تغيب كل المثاليات الهندسية من فضاء هندسي وزمن رياضي ونعيش تجارب في العالم ونتصل به ونعيشه بكليتنا ولحمنا وعظمنا.

من هذا المنطلق يعمل هوسرل على استبدال النشاط المثالي الذي يقوم به الأنا بشكل منهجي بالنشاط الذي يتم بصورة مباشرة من طرف الذات من حيث هي واقعة. يتم إعطاء عالم الحياة بقوة، وإصرار، الحقيقة التي تجعل من الطبيعة هي واحدة وفريدة ولا تقبل العبور. إن هذا العالم الطبيعي لا يعرف التغير، لأننا اقتصرنا على منهج فيزيائي مخصوص يرتبط بالمعالجة الهندسية. لقد قام العلم باللباس عالم الحياة ثوب الأفكار التي تأتي من الرياضيات والفيزياء، وان هذا الثوب من الأفكار العلمية هو الذي يجعلنا نعتبر كل ماهو منهجي أو خاضع لمنهج هو الأمر الحقيقي. علاوة على ذلك لا تبحث الفنومينولوجيا عن حقيقة العالم ولا تتعامل معه من حيث هو واقع ينقسم إلى ماهيات وجواهر وإنما تتخطى الإخفاق الديكارتي عند تنصيبه الأنا الأفكر في موقع متعال على صعيد المعرفة والوجود. لهذا السبب تقوم بعملية قلب للموقف الإدراكي بحيث لا وجود للأنا بلا عالم والذات منغمسة في جملة من التجارب المعيشية في. كما تؤكد على الانفتاح على الحياة الجديدة وتعطي أهمية للمخيلة والزمان والذاكرة واللحم وتتخلى عن مثالية العالم وتعاليه وتقول بالمحايثة وتقر بأن العالم أرضية وأفق ونتيجة للتكوين الذي يقوم به الأنا عبر الحضور في الذات وتوسيع ميدان الحدس المقولي عن طريق الفعل القصدي والبيذاتية. إن عالم الحياة هو وحدانية العالم وأن نسيان الحياة من طرف العلم قد تم تداركه بإعادة الاعتبار إلى العالم من حيث هو أرضية وأفق وتأسيس الحرية ضمن الذاتية المتعالية والنظر إلى العالم كإمكانيات محضة.

في هذا الإطار يصرح ما يلي: " الظاهرة هي التجلي الكامل للماهية"، ويعني بذلك أن الفنومينولوجيا على خلاف إمونيال كانط قادرة على إدراك الماهيات والعودة إلى الأشياء في حد ذاتها من حيث هي ظواهر معطاة للوعي .غاية المراد أن المنهجية الفنومينولوجية عند هوسرل ترتكز على تجربة الوصف التي تقوم على وضع العالم الموضوعي الخارجي بين قوسين في مرحلة أولى وتنطلق في ممارسة الوصف في مرحلة ثانية من خلال تعيين القصد الذي تستهدفه هذه التجربة وبعد ذلك الموضوع المعنى فيها.